الوصف فى شعر امرئ القيس

بقلم السباعى السباعى يومى
الأستاذ بدار العلوم

— ٢ —

ناحية الخيل والصيد

عالجنا فى مقالنا الفائت الوصف فى شعر امرىء القيس من الناحية الغزلية وكنا على أن نعالجه فى مقالنا هذا من ناحية الخيل والصيد وها نحن أولاء نبر بما قلنا.

كان امرؤ القيس على ماسلف منصرفاً بكل نفسه فى أوليات حياته إلى ناحية اللهو والاستمتاع فلا يزال يتنقل فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ آفاقها وكلما صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فنحرلهم وخرجوا إلى الصيد فتصيدوا ثم عادوا فأكلوا وشربوا وغنتهم قيانه. وكان إلى جانب هذا ذا وجد وسعة يـ ال بهما مأربه ويشبع منهما نهمه، ثم كان أحب شىء إلى نفسه بعد التغزل بالنساء اللهو بالخيل والصيد فكان لهذا كله ذا قنية لكرائم الخيل ودراية بمحاسنها ومعرفة لأحوال الصيد إذ تلك أمور تهواها نفسه ويتطلبها لهوه ومن ثم كان طبيعياً أن يعالج فى معلقته بعد الجانب الغزلى وصف الصيد بما يتقدمه من وصف الخيل وما يعقبه من النزول للراحة والأكل وأن يختص هذه الناحية فيها وفى غيرها بكثير من شعر قاصداً فى ذلك النحو الآتى

يرى المطلع على شعره فى هذه الناحية أنه يبدأ بنعت الفرس ويثنى بوصف الصيد وينهى مايريد بالحط للراحة والأكل . فمن حيث نعت الفرس ما كان يدع وصفاً حسياً يعطيه قوة وخفة وجمالا إلا يفرغه عليه فتراه يجعله ضخم العظام يقوى بهيكله على الشدائد أملس الظهر يزل اللبد عن وسط متنه وكان يعمد إلى تشبيه هذه الملاسة بملاسة مسحق العروس لاستدامتها دك الطيب فيه أو صلابة الحنظل لحاجته إلى طول الدق لما فيه من قوة وصلابة وهذا منه جميل وأجمل منه أن يعطيه خاصرتى الظبى وساقى النعامة ويجعله عن ابتكار لم يسبق إليه قيد الأوابد وهى نوافر الوحوش ذا اندفاع شديد لايقل فى فره وإدباره عنه فى كره وإقباله فهو فى كليهما كالصخرة يحطها السيل من عل فتهوى متأثرة بثقلها ودفع السيل إياها ومنحدرها فى هويها وبهذا كان يشبه زلل اللبد عنه أيضاً ثم هو يقول عن فنون سيره إذا قرب فثعلب وإذا أرخى فسرحان وإذا سار على الذبل كان اهتزامه كغلى القدر وإذا دنت السابحات فأثرن الغبار بركلهن الكديد سح فكان فى دره كخذروف الوليد ويقول عن قوته إنه يزل الخفيف عن صهوته ويعنى الثقيل بشدته ثم هو يختار للونه الخمرى ولذيله الضفو والاسترسال ليكون هذا أدعى إلى فرط جماله وزيادة حسنه وذلك كله حيث يقول من المعلقة

وقد اغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصفواء بالمتنزل
على الذبل جياش كأن اهتزامه ... إذا جاش فيه حميه غلى مرجل
مسح إذا ما السابحات على الونى ... أثرن الغبار بالكديد المركل
درير كخذروف الوليد أمره ... تتابع كفيه بخيط موصل

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل
كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل

ومن حيث النهوض للصيد والنزول بعده للراحة والأكل أجاد فى المعلقة نعت النعاج فجعلها فى جمال ألوانها ورتوعها كالعذارى يدرن فى ملائهن المذيل حول دوار وهو صنم وشبههن إذا يدبرن ويسترسلن بعقد الجزع المفصل بين حباته المبالغ فى تجميله حتى يتلاءم وطفلا ذا عزة وثراء وكأن ذلك المنظر الجميل للنعاج قد أغرى فرسه بالعدو وراءهن فلحق بالهاديات ولما تتفرق الصرات وعادى فى آن بين ثور ونعجة فأدركهما ولم يغسل بماء ثم أقبل وقد علقت بنحره الأبيض الدماء فكانت فيه كعصارة الحناء فى الشيب المرجل . وحين نزلوا بما صاد ، جعل طهاة اللحم غرقين فى إنضاجه من صفيف مشوى وقدير مسلوق ولم ينس إذ قاموا للرواح أن يبقى على الفرس بالرغم من تلك الجهود قوته وحسنه حتى إن الطرف ليقصر دونه فلا يكاد يرتفع إليه حتى ينحط عنه روعة منه أو خوفاً عليه وأنه لذلك قد أباته أمامه مسرجاً ملجماً نزهة لعينه ومسرة لفؤاده وهذا إذ يقول :

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول
فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها فى صرة لم تزيل
وعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل
ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترق العين فيه تسهل

فبات عليه سرجه ولجامه وبات بعينى قائما غير مرسل

هكذا كان يصف امرؤ القيس الخيل والصيد لا يغفل عن ناحية من تلك النواحى الثلاث ولكنه ما كان ليجعلها فى مستوى واحد من حيث السعة والإشباع فكان فى كل قصيد يميل إلى إحداهن فيبدى فيها دون الأخريين ضروباً من الاطناب والاقتنان فبينا تراه فيما أسلفنا من المعلقة قد أفاض وأطال فى وصف الفرس دون وصف الصيد والنزول تراه فى قافيته التى مطلعها :

ألا انعم صباحاً أيها الربع فانطق

وحدث حديث الركب إن شئت فاصدق

قد أطال الإطالة كلها فى وصف الصيد دون الأمرين الآخرين ممهداً لهذا بعد بيت واحد فى وصف الفرس يبعث الرىء المستور الذى كان يمشى الهوينى فى شجر الضراء كذئب الغضا متقياً أن يراه الوحش والذى كان مبالغة فى ستر نفسه يلصق جسمه بالتراب سافنا الأرض ببطنه غير رافع من شخصه سوى الرأس والذى جاء مخبراً بأن هناك قطيعا من البقر وآخر من الحمر وثالثا يرتعى متفرقاً من النعام فما إن سمع منه باعثوه ذلك حتى أسرعوا بأشلاء اللجام إلى فرس كغصن البان الناضر ولم يقودوه إليهم للعجلة منهم او للإعزاز له وهنا كانت مزاولتهم فى حمل الغلام عليه وقد صلب وامتد كعود الرحل الضامر فما إن علا الغلام وسط متنه حتى كان منه إلى الصيد على ظهر باز محلق فى السماء . ولقد ذكر عن فرسه هذا أنه صادف وهو يروى فى طريقه إلى القطعان أرنباً جلاها بطرفه الحديد فعز عليه ألا يناها وحاول الغلام صرفه عنها إلى ما هو مراد فنبّه محافظة عليه أن تلك محاولة إن أصر عليها منتجة لا محالة قذفه من أعلى القطاة فأولى أن يصوب ويصيد وأن ذلك الغلام أطاع وفعل ثم أسرع به إلى

القطعان فأدبرن أمامه كأنهن الجزع المفصل بجيد ذلك الغلام فعدا وراءهن كالغيث المنهمر فى العشاء فأدركهن ثانياً من عنانه وصاد من كل قطيع ما أراد فى عداء واحد دون أن ينضح بماء ثم رجع وفى مصيده من كل نوع أشداؤه ففيه العير من الحمر والثور من البقر والظليم الخاضب من النعام وإليك فى هذا ماقال :

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل شديد مشك الجنب فعم المنطق
بعثنا ربيئا قبل ذاك مخملا كذئب الغضا يمشى الضراء ويتقى
فظل كمثل الخشف يرفع رأسه وسائره مثل التراب المدفق
وجاء خفياً يسفن الأرض بطنه ترى التربه منه لاصقاً كل ملصق
وقال ألا هذا صوار وعانة وخيط نعام يرتعى متفرق
فقمنا بأشلاء اللجام ولم نقد إلى غصن بان ناضر لم يحرق
نزاوله حتى حملنا غلامنا على ظهر ساط كالصليف المعرق
كأن غلامى إذ علا حال متنه على ظهر باز فى السماء محلق
رأى أرنباً فانقض يهوى أمامه إليها وجلاها بطرف ملقلق
فقلت له صوب ولا تجهدنه فيدرك من أعلى القطاة فتزلق
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد الغلام ذى القميص المطوق
فأدركهن ثانياً من عنانه كغيث العشى الأقهب المتودق
فصاد لنا عيرا وثورا وخاضبا عداء ولم ينضح بماء فيعرق

ولم يعدم شعره إفاضة فى الأمر الثالث وهو النزول بعد الصيد كما فعل فى بائيته التى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

فقد أطال فى وصف النزول ممهداً لهذه الاطالة بوصف بيت مروح نزلوه بعلياء فعالوا عليهم فضل الثياب المشدودة بالأطناب ولقد عمد إلى تكوين

هذا البيت من أدوات قتال أو زينة إشادة بشجاعته وسيادته فجعل أوتاده أسلحة ماذية وأعمدته رماحاً ردينية ذات أسنة مقضبية وأطنابه أشطان رواحل خوص نجائب وجعل صهوته وهى وسط سماوته أى سقفه من البرد المخططة المصنفة وهى الأتحمية المشرعية وسائر السمادة من البرد ذات العصائب كما جعل مساند الظهور فيه كل رحل ذى طرائق مشطب من نسج الحيرة وما أجمل تعبيره عن لذة ذلك اليوم برفاهيته وعن سعادة مقيله بغياب نحسه وفى ذلك المجلس انتزع ذلك التشبيه الخالد لعيون الوحش وقد ألقيت حولهم بجعلها كالجزع غير المثقب ذلك المعنى الطريف وهو مش الأكف من دسم الشواء غير الكامل النضج بأعراف الجياد وهذا إذ يقول .

فقلت لفتيان كرام ألا انزلوا ... فعالوا علينا فضل ثوب مطنب
فقمنا إلى بيت بعلياء مروح ... سماوته من أتحمى معصب
وأوتاده ماذية وعماده ... ردينية فيها أسنة مقضب
وأطنابه أشطان خوص نجائب ... وصهوته من أتحمى مشرعب
فلما دخلناه أضفنا ظهورنا ... إلى كل حارى جديد مشطب
فظل لنا يوم لذيذ بنعمة ... فقل فى مقيل نحسه متغيب
كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب
نمش بأعراف الجياد أكفنا ... إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وكما شاءت حياة امرىء القيس الأولى أن يجيد وصف الخيل للطراد والصيد شاءت حياته الثانية بعد مقتل أبيه وهمه للأخذ بالثأر أن يجيد وصفها للنزال والحرب وإنه لما يلاحظ بين الوصفين أنه كان يعنى ذكورها فى الصيد وإناثها فى الحرب لأن الصيد أحوج إلى القوة والعدو وهما فى الحصان أوفى منهما فى الفرس كما أن الحرب أحوج إلى المرابطة

والمصابرة والإناث فى الخيل أصبر من الذكور لذلك نراه يقول .

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر
لها حافر مثل قعب الوليـــد ركب فيه وظيف عجر
وساقان كعباهما أصمعا ن لحم حماتيهما منبتر
لها عجز كصفاة المسيـــل أبرز عنها جحاف مضر
وسالفة كسحوق الليا ن أضرم فيها الغوى السعر
لها غدر كقرون النسا ء ركبن فى يوم ريح وصر
لها جبهة كسراة المجن م حذقه الصانع المقتدر
لها منخر كوجار الضبا ع فمنه ترتيح إذا تنبهر
لها ثنن كخوافى العقا ب سود يفثن إذا تزبئر
وعين لها حدرة بدرة تشق مآقيهما من أخر
إذا أقبلت قلت دباءة من الخضر مغموسة فى الغدر
وإن أدبرت قلت أثفية ململمة ليس فيها أثر
وإن أعرضت قلت سرعوفة لها ذنب خلفها مسبطر
وللسوط فيها مجال كما تنزل ذو برد منهمر
وتعدو كعدو نجاة الظبا ء أخطأها الحاذف المقتدر
لها وثبات كصوب السحا ب فواد خطاء وواد مطر

فالخيفانة الفرس السريعة الخفيفة وقد انصرف كما رأيت يصفها ويشبهها حتى لم يبق فى الأمرين مجالا لواصف أو مشبه وقد بدأ بوصف خالف فيه المعروف المتداول وهو كسوة وجهها بشعر ناصيتها المنتشر كأنه السعف والمعروف تجريد الوجه وتعريقه ولذلك خطأه بعض النقاد على أنى قد أرى له فى الأمر وجها قصد إليه إذ لا يعقل أن يكون ذلك منه عن جهل فما الأمر بخاف ولا دقيق وليس ببعيد أن يكون قد أراد من هذه

الكسوة جعل هيئة الوجه مروعة مفزعة تتلاءم وجال الروع والفزع حتى لكأنه من الفرس وجه الشجاع الكمى الذى يستتره ولا يبدى سوى العينين وأما تمادى النقاد فى أن ذلك السعف قد غطى من الفرس العينين وأعماها فهو تماد ليس عليه فى قول امرىء القيس من دليل ثم انثنى بعد هذا البدء الذى برزناه إلى جعل حافرها فى صغره واستدارته وصلابته وملاسته كقدح الوليد وأن ذلك الكعب قد ركب فيه وظيف صلب وهو ما بين الحافر والساق ولصلابة هذا الموطن من الفرس أثره المحمود وإلى جعل كعبى الساقين صغيرتين فى صلابة ولحم حماتيهما والحماة العضلة قليلا مكتنزا منبترا عن العظم وبمثل هذا الا كتناز والانبتار وصف متنيها فجعلهما كساعدى النمر إذا أكب عليهما وما أوقع تشبيهه عجزها فى استوائه واكتنازه وملاسته بالصفاة مكثت فى المسيل طويلا ثم أبرز عنها سيل جحاف ومن هنا أخذ يبدع فى التشبيهات المتلاحقة فشبه سالفتها فى الطول واللون بالطويلة من النخل يضرم فيها النيران غوى وشبه معرفتها فى ضفوها واسترسالها بذوائب النساء المعارة ركبن فى يوم ذى ريح وصر وشبه جبهتها فى صلابتها وانبساطها بظهر الترس صنع الحاذق المقتدر وجعل لها وجار الضباع فى سعته منخرا تريح منه وخوافى العقاب فى صغرها واسودادها ثننا إذا غضبت ينتشرن والثنن شعرات فى مؤخر الرسغ ثم جعل عينيها حادتين فى استدارة كاستدارة البدر ومؤخرتين فى شق مآقيهما إلى الأذنين وبعد هذا كله أقبل على نوع من التشبيهات فى حالات فقال إذا أقبلت كانت فى طول العنق ودقة المقدم والنضارة كالقرعة المغموسة فى الغدر وإذا أدبرت كانت فى استدارة مؤخرها وملاسته واجتماعه كالأثفية الخالية من أثر فإذا ما أعرضت كانت فى امتدادها وقلة لحمها جرادة يزيد امتدادها ذيل مستطيل خلفها ثم جعلها مع هذا جميعه ذات

حرارة تخاف من أجلها السوط فلا هابة به عليها سير كتنزل البرد المنهمر وعدو كعدو الظباء تطلب النجاة من حاذق مقتدر رمى وأخطأ وأنها فى وثباتها لتجاوز بعض البقاع غير واقعة عليها كالصيب من السحاب يسرع قواد خطاء وواد مطر .

على أن أمرأ القيس كان يجمع فى بعض قصيره بين وصف الخيل للصيد ووصفها للحرب كما فعل فى لاميته :

الأعم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

مخالفا عادته السالفة من جعل الفرس للغارة والحصان للصيد ولعل مما يشفع له فى هذه المخالفة بدؤه بالجواد للصيد على الأصل واتخاذه الفرس للغارة قبل اتخاذها للصيد وذلك حيث يقول

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الردى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى على هيكل نهد الجزارة جوال
سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا له حجبات مشرفات على الفال
وصم صلاب مايقين من الوجى لغيث من الوسمى رائده خالى
تحاماه أطراف الرماح تحاميا وجاد عليه كل أسحم هطال
بعجلزة قد أترز الجرى لحمها كميت كأنها هراوة متوال
ذعرت بها سربا نقيا جلوده وأكرعه وشى البرود من الخال
فجال الصوار واتقين بقرهب طويل الفرا والروق أخنس ذيال
كأن الصوار إذ تجهد عدوه على جمد خيل تجول بأجلال
فعادى عداء بين ثور ونعجة وكان عداء الوحش منى على بال
كأنى بفتخاء الجناحين لقوة صيود من العقبان طأطأت شملال
تخطف خزان الشربة بالضحى وقد حجرت منها ثعالب أورال
كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

فانظر إليه كيف مهد لما يريد من وصف الخيل للغارة والحرب معا ببيتين فذين قارنا إلى ركوب الخيل للصيد تبطن الكاعب وإلى ركوبها للحرب إغلاء الزقان جامعا بذلك بين أربع لذات صارت مثلا يحمد لمن يحتذيه ويؤاخذ من يخالفه كما سنبينه آخر المقال : ولقد خرج من هذا الإجمال إلى التفصيل يقول عن ماضيه إنه كثيرا ما شهد الخيل المغيرة ضحى على حصان ضخم الجسم نهد العنق سليم عظم الركبة عبل الأطراف متقبض النسا وهو عرق الفخذ مشرف عظام الوركين على لحمهما ومشرف القطاة وهى مقعد الردف على ما حولها كأنها منه على فرخ نعام ثم هو ذو حوافر صم صلاب لا يتأثرن من حفا . وإنه كثيرا ما اغتدى والطير فى وكناتها إلى نبت جاده السحاب الوسمى قد عز وخلا من الرواد على فرس خمرية اللون صلبة الأعضاء أيبس العدو من لحمها حتى لكأنها فى ذلك وفى امتداد طولها عصا منوال فذعر بها سربا نقى الجلود يختال بأكرع كأنها فى اللون وشى البرود فجفل أمامها واتقى بثوره الأخنس طويل القرا والذيل والقرون فلم يجده ذلك فتجهد فى عدوه على الصلب من الأرض كأنه الخيل الجائلة خفيفة بالاجلال فعادت فرسه عداء واحدا بين ثور ونعجة فأصابتهما على تهمم منه وبال وكأنه إذ نحزها بفخذه للعدو كان منها على عقاب لينة الجناحين سريعة صيود لا تزال تخطف الذكور من أرانب الشربة وتجتحر خوفا منها ثعالب أورال بعد أن تعى ما بهذين المكانين من طير فتتراكم قلوبه لدى وكرها ما بين رطب ويابس كأنها العناب والحشف البالى . وليس بعد إبداعه فى ذلك التنبيه المزدوج إبداع .

هذا وبيانا لمكانته بيتيه : كأنى لم أركب جوادا للذة إلى آخرهما نقول والفضل لا يتبين إلا على ألسنة النقاد . إنهم قالوا كان ينبغى أن يخالف فيهما فيجعل كر الخيل مع ركوب الجواد وتبطن الكاكب مع سبء الزقان حتى يقرن الجد بالجد واللهو باللهو ولعلهم تأثروا فى ذلك بقول عبد يغوث :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلى كرى نفسى عن رجاليا

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

ولكن امرأ القيس كان أشد مراعاة للائتلاف وأكثر محافظة على شخصيته فان التلاؤم وثيق بين تبطن الكاعب وركوب الجواد للصيد وهو كذلك بين شراء الخمر والقتال حتى يضم إلى كل لهو جدا فالى تبطن الكاعب قوة الصيد ولهذا مكانته عند النساء وإلى شراء الخمر كرم الخيل ليمتدح نفسه بالكرم والشجاعة فى آن ولقد وقع للمتنبى من سيف الدولة مثل هذا النقد الظاهرى فأجابه بما نصر به نفسه وانتصر فيه لامرئ القيس وأقر منه على ما قال وذلك حيث أنشده

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فأنكر عليه ذلك وقال ينبغى أن تطبق عجز الثانى على الأول وعجز الأول على الثانى حتى لا تكون كامرئ القيس فى قوله : كأنى لم أركب جوادا للذة : البيتين : فقال أبو الطيب « أدام الله سبحانه وتعالى عز مولانا إن صح أن الذى استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله إذ أخرجة من الغزلية إلى الثوبية وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء وأنا لما ذكرت الموت أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون باكية قلت ووجهك وضاح لأجمع بين الأضداد فى المعنى » فأعجب سيف الدولة بجوابه وزاد فى صلته :

وإلى هنا نقف وموعدنا العدد القادم إن شاء الله فى وصف امرئ القيس للسحاب والمطر . ؟

السباعى السباعى بيومى
مدرس بدار العلوم